

افتتاح إفريقيا

وكيف غزاها الاستعمار الأوربي

بقلم مؤرخ كبير

ليست المشكلة الإيطالية الحبشية التي تكدر اليوم سلام العالم سوى نغمة جديدة من نغمات الاستعمار القوي ، وطموح أمة أوربية قوية إلى غزواً إفريقيا ضعيفة ترخر أرضها بالثروات الطبيعية الدفينة التي ما فتئت تحفز الاستعمار إلى الغزو والتغلب ، وإلى اجتياح الأمم الضعيفة الآمنة ؛ فهي ليست بذلك مشكلة دولية بالمعنى المعروف ، وإنما هي محاولة أوربية جديدة لاجتياح آخر أرض في إفريقيا استطاعت أن تنجو حتى اليوم من عدوان الاستعمار

كانت القارة الإفريقية منذ قرن فقط ، منطقة بكرًا ، لا يكاد الغرب يعرف شيئًا إلا عن أممها الشمالية التي تحتل الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، والتي كانت تتمتع مدى الأحقاب بمحضرات زاهرة ؛ وكانت هذه الأمم المتمدة الزاهرة - مصر وبلاد المغرب - تكاد تحجب ما وراءها من أمم القارة السمراء ، وتكون دون اجتياحها سدًا منيعًا يحميها من مطامع الاستعمار القوي الذي استطاع منذ القرن السادس عشر أن يجتاح الأمريكتين ، وأن ينفذ إلى الشرق الأقصى ، واستطاع منذ القرن الثامن عشر أن يستقر في الهند . ومنذ أواخر هذا القرن أيضًا توالى بعوث الاستعمار إلى إفريقيا ، فنفذت إليها من الشرق والغرب والشمال ، وأثارت اكتشافات الرُّحَّل مثل منجو بارك ودينهام وكلابرتون ورنيه كاييه وستانلي ولفنجستون وغيرهم في الأمم الأوربية مطامع وآمالاً جديدة ، وبمشت النهضة الصناعية إليها رغبة قوية في استعمار تلك المناطق الجديدة واستغلال ثرواتها الدفينة ، واستعباد شعوبها المتأخرة وتسخيرها في سبيل الغايات الاستعمارية

وكانت أم إفريقيا الشمالية ، وهي مفتاح القارة ، بالطبع محط الشرعات والمحاولات الأولى ؛ وكانت إسبانيا أسبق الأمم

المحدد والضعيفة ، وعدوة البنايا أيضًا بمعنى من المغالبة والمنافسة ، وكل ما يستطيع الدهاء أن يعمله فهو الذي على أنا أن نعمله ، فإنا أسنح وأنا أحب ؟ وكيف أنجح وأنا أحب ؟ ولكن النفس تجيبني على كل هذا بأن هذا كله بعيدٌ عن المسئلة مادام هو هو المسئلة ..

قال الراوي : وكانت كالأهلة مما سمعت ، ثم قالت : ألك شيطانٌ في قلبي ؟ فهذا كله هو الذي حدث في سبعة أيام قال (ح) : ولكن كيف يقع هذا الحب . وهبئك صنفت تلك الرواية ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فإذا كنت تنطقها في وصف حبها ، وما اجتديها من رجل فاز بقلبي ولم يُداورها ، بمد مائة رجلٍ كلهم دأورها ولم يهز منهم أحد . أنتكون في وجه هذا الرجل أنوار كتبشير الصبح تدلُّ على النهار الكامن فيه ؟

قالت هي : نعم نعم . بماذا كنت تنطقها ؟ قلت : كنت أضع في لسانها هذا الكلام تجيبُ به عاذلةً تمذُّلها :

تقول : لا أدري كيف أحبته ، ولكن هذه الشخصية البارزة منه جذبتني إليه ، وجعلت الهواء نيا بيني وبينه مُغمما بالمغناطيس مصدره هو ، ومعناه هو ، ولا شيء فيه إلا هو عرَّضته لي شخصيته ظاهراً لأن جواب شخصيته في ، وأصبح في عيني كبيراً لأن جواب شخصيتي فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيد كل يوم ظهوراً وتزيدني كل يوم بصراً ، وأعطاه حقه في الكمال عندي حقه في الحب مني ؛ وبذلك الشخصية التي جوابها في نفسي أصبح ضرورة من ضرورات نفسي

قال الراوي : ولما رأيتها في جوى نسيمة وعاصفته ، أردتها على قصتها وشأنها ، فإذا قلت لها وماذا قالت ؟ (في السد القادم بيتها) (طنطا)

إلى الأدبية و... من دمشق : أما بعد الشكر للأدبية العاضلة فأنت في الشكرى والموضوع يتدرج وسيجيء إليك كتابان الراوي

حتى أتمت فتح الجزائر ؛ وأسر عبد القادر بعد خطوط وأحداث
جمعة (سنة ١٨٤٧) ، وارتد الزعيم الباسل بعد أعوام من الأسر
بأسرته إلى دمشق ليقتضى بقية أيامه فيها

وهكذا كانت الجزائر أول قطر أفريقي سقط في يد الاستعمار
الأوروبي ، وكان سقوطها فاتحة تلك الحركة الاستعمارية الهائلة التي
تعرف « بافتتاح إفريقية » والتي اشتركت فيها معظم الدول
الأوربية الكبرى ، طوراً متحدة وطوراً منفردة ، واستمرت
طوال القرن التاسع عشر ، وانتهت بتقسيم إفريقية ، وسقوط
أقطارها تباعاً في يد الدول الاستعمارية الكبرى

ولما استقرت فرنسا في الجزائر أخذت تتطلع إلى تونس
ومراكش ؛ وكانت تونس بما يسودها من الضعف والتفكك
فريسة هينة ، فما زال الفرنسيون بها حتى جردوا عليها حملة غازية
في سنة ١٨٨١ ثم جردوا عليها أسطولاً رسماً في بنزرت ، وزحفوا
على تونس في مايو سنة ١٨٨٥ وأرغموا « الباي » صاحب تونس
على أن يعترف بالحماية الفرنسية على القطر التونسي . أما مراكش
فقد استطاعت لمنعتها ووعورتها أن تقف في وجه الاستعمار
مدى حين ، وعاونتها السياسة الألمانية على مقاومة فرنسا وإجباط
محاولاتها حتى أوائل القرن الحالى

وفي الوقت الذى سقطت فيه تونس في يد الفرنسيين كانت
انكلترا قد نظمت مشروعها لاحتلال مصر ، وألقت فرصتها
في اختلال الأحوال المالية ، وفي قيام الثورة العربية ، فبمثت
حملتها المروفة إلى مصر في صيف سنة ١٨٨٢ ، واحتلت عاصمتها
في سبتمبر ، في ظروف ما زالت معروفة ماثلة في جميع الأذهان ،
وما زال الاحتلال الانكليزي قائماً في مصر ، وما زالت المسألة
المصرية تفتنر حلاً شريفاً عادلاً يحمق أمانى مصر في استرداد
حرياتها واستقلالها

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر كانت البعثات
الاستكشافية المديدة قد ألقت برحلاتها ومباحثها كثيراً من
الضياء على إفريقية وبجهاها ووهادها الفنية ، وثرواتها الطبيعية ،
المتنوعة ، ولم تمض أعوام أخرى حتى اكتشفت منابع أنهارها
المظيمة مثل النيل والنيجر والبكونفو ، وحققت بحارها

الأوربية إلى التطلع إلى تلك الأم المغربية التي تواجهها في الضفة
الأخرى من البحر والتي خاضت معها من قبل كثيراً من المارك ،
والتي استطاعت أيام قوتها وازدهارها - أيام المرابطين والموحدين -
أن تنزوا اسبانيا وأن تحتل قسمها الجنوبي أعنى اسبانيا المسلمة ؛
ومنذ أيام الإمبراطور شارل كان وولده فيليب الثاني (القرن
السادس عشر) بذلت اسبانيا - وهي يومئذ في إبان قوتها
وعظمتها - عدة محاولات لافتتاح الجزائر وفتوح المغرب ، ولكنها
لم تستطع أن تنظر في تلك الوهاد الوعرة بفتوح مستقرة ؛
واستطاعت تلك الأمم المغربية أن تحافظ على استقلالها في ظل
طائفة من الحكام الفاسرين الذين يرجعون إلى أصل تركي حتى
فاتحة القرن التاسع عشر . وكانت اسبانيا قد انهدرت في ذلك
الحين إلى عداد الدول الثانوية ، وأخذت دولة أوربية أخرى
هي فرنسا تتطلع إلى افتتاح تلك الأم واستعمارها ؛ وكانت حتى
افتتاح إفريقية قد أخذت تسرى إلى الدول الأوربية ، على أثر
الاكتشافات الجغرافية المديدة التي كشفت عن غنى تلك المجهل
بالثروات الطبيعية المدهشة ؛ وخشيت فرنسا أن تسبقها أمة
أوربية أخرى إلى غزوها أم المغرب التي تواجهها في الضفة الأخرى
من البحر ولا تبعد عن نفورها الجنوبية سوى يومين ؛ ولم يكن
يموز الاستعمار أو تجزئه حجج التدخل والبدوان . ففي سنة
١٨٣٠ ، في عصر الملك شارل العاشر ، جهزت فرنسا أسطولاً
ضخماً ، وحملة قوية إلى ثغر الجزائر ؛ واسعولى الفرنسيون على الثغر
الحصين بعد قتال رائع ، وانسحب الحاكم التركى (الداى) بأمواله
وأسرته ؛ واتخذ الفرنسيون من الجزائر قاعدة لغزو المغرب
الأوسط كله ؛ وكانت بتوسطها ومناعتها أصلح القواعد ؛ ولكن
فرنسا لقيت خصماً صلباً عنيداً في عبد القادر زعيم الجزائر وبطلها
الأشهر ؛ وقد استطاع هذا الوطنى الكبير والجندى الباسل أن
ينظم الدفاع عن وطنه زهاء خمسة عشر عاماً هزم خلالها عدة
حملات فرنسية قوية ، وكبد فرنسا خسائر فادحة في الرجال
والمال ؛ ولكن السياسة الاستعمارية لم ترتد أمام هذا النضال
الوطنى الرائع ، ولم يحجم في سبيل غايتها عن أية تضحية ؛ فما
زالت فرنسا تبث الحملات المختلفة ، وتستولى تباعاً على قواعد
الجزائر ، ويخوض مع عبد القادر معارك مضطربة مستمرة ،

منطقة الرأس (الكاب) كما قدمنا ، وكان البوير (وهم سلالة المستعمرين الهولنديين الأوائل) قد استقروا في منطقة «الأورنج» وفي «قال» ، فاستولى الانكليز على قال ، وهاجر البوير منها ، وأسسوا لهم مستعمرة جديدة هي «الترنسفال» واعتزفت انكلترا باستقلالها سنة ١٨٥٢ ، ولكن انكلترا ما فتئت تبسط سلطانها نحو الشمال تباطا ، فاستولت على أرض الكافر وباسوتولاند ؛ وفي أواخر القرن التاسع عشر أنشأ مسهل رودس شركة استثمارية على مثال الشركة التي أسست من قبل في الهند ، وعضدت الحكومة الانكليزية مشروعه في فتح الأراضي الواقعة حول حوض الزمبيزي وأمدته بالمال والجند ، وهكذا انتزحت رودسيا ، وأصبحت انكلترا تسيطر على أواسط افريقية الجنوبية من منابع الكوتفو حتى الكاب ، ولم يبق خارجا عن سلطانها سوى الترنسفال ومستعمرة الأورنج حيث استقر البوير . وكانت انكلترا تطمح دائما إلى ضم هاتين المستعمرتين إليها لتوحد امبراطوريتها في افريقية الجنوبية ، وكان البوير من جهة أخرى بزعامه رئيسهم الشهير «كروجر» بناوون كثيرا من مشاريعها الاستعمارية ، ويقاومون تدخلها بشدة ؛ وأخيرا لم تر انكلترا بدأمن اعلان الحرب لتحقيق غايتها ، فاضطرت الحرب بينها وبين البوير (أكتوبر سنة ١٨٩٩) وأبدى البوير بسالة عظيمة ، واستطال دفاعهم زهاء ثلاثة أعوام ؛ وأخيرا اضطروا إلى الاعتراف بسيادة انكلترا ولكنهم احتفظوا باستقلالهم الداخلي ، ونالوا من انكلترا تعويضا ضخما عما أصابهم من التخريب والحسائر ، وكبدت هذه الحرب الشهيرة انكلترا خسائر فادحة في المال والرجال ، ولكنها استطاعت أخيرا أن تحقق مشروعها في توحيد امبراطوريتها في جنوب أفريقية

وفي أواخر القرن التاسع عشر اشتدت المنافسة بين الدول الاستعمارية ولاسيما بين ألمانيا وانكلترا من جهة ، وبينها وبين فرنسا من جهة أخرى . وانتهت انكلترا وألمانيا أخيرا إلى التفاهم وعقدتا في سنة ١٨٩٠ معاهدة لتخطيط الحدود بين أملاكهما في إفريقيا . وعقدت بين انكلترا وفرنسا في سنة ١٨٩٨ معاهدة لتحديد أملاكهما في حوض النيجر وغرب إفريقيا ، ثم عقدت

وأحواضها ، وأخذت روعة الثروات العظيمة التي اختصت بها القارة السمراء تحفز الاستثمار الأوربي وتذكي أطماعه ، واشتدت المنافسة بين الدول الكبرى لاقتسام هذه الأقطار الغنية واحتلالها . عندئذ اتفقت الدول على عقد مؤتمر ينظم اقتسام افريقية ، ويحدد مناطق النفوذ والنشاط لكل دولة ، وكان ببارك المستشار الألماني هو صاحب الفكرة ، فمعد المؤتمر في برلين في أواخر سنة ١٨٨٤ ، واتفق على أن تكفل الحرية التجارية المطلقة لجميع الدول في حوض الكونغو ، وأن تكفل حرية الملاحة في نهري النيجر والكونغو ، وألا يعتبر الاحتلال النظري قائما في منطقة من المناطق حتى يؤيد بالاحتلال الفعلي ، واعترف المؤتمر أيضا بقيام دولة مستقلة في الكونغو وأنها ملك شخصي لملك البلجيك وهي التي أنجحت في يومنا مستعمرة عظيمة تملكها دولة أوربية صغيرة هي البلجيك

على أن قرارات مؤتمر برلين لم يكن لها أثر فعلي ظاهر فيما تلا من تقسيم افريقية . وكانت فرنسا قد وضعت يدها على الجزائر وتونس والسنغال ، ووضعت انكلترا يدها على مصر ، ومنطقة الرأس (الكاب) ، وبدأت ألمانيا احتلالها في نفس الوقت للكمرون وتوجولاند وشرق افريقية ؛ ولم يكن ثمة بد من أن تتفاهم هذه الدول الاستعمارية الكبرى فيما بينها بمعااهدات واتفاقات خاصة على تحديد المناطق التي تطمح كل إلى امتلاكها ، وكانت كل دولة قد شادت بما احتلته أسس امبراطوريتها الاستعمارية في افريقية . وكانت فرنسا أنشطها في بناء هذا الصرح الاستعماري ، فلم تأت أواخر القرن التاسع عشر حتى كانت قد احتلت معظم افريقية الثرية ، واستولت على السنغال وأعلى النيجر ، وساحل العاج ، وداهومي ، ونفذت في قلب افريقية إلى السودان الأوسط حتى بحيرة تشاد ، ووطدت أقدامها في الشمال في تونس والجزائر ، وافتتحت جزيرة مدغشقر في سنة ١٨٩٥

أما انكلترا فلها ووطدت أقدامها في وادي النيل ، في مصر والسودان ، وشرق افريقية البريطاني ، واحتلت زنجبار ، وأخذت في بناء امبراطوريتها الاستعمارية العظيمة في أواسط افريقية وجنوبها . وكانت منذ أوائل القرن التاسع عشر قد احتلت

٣- الشعر *

في صدر الإسلام وعهد بني أمية

بقلم احمد حسن الزيات

٢ - فصائص الشعر في العراق

أما الفرزدق فهو كالأخطى في الذؤابة من قومه ، إلا أنه كان صريح المداوة فلا يوارى ، فاحش الدعابة فلا يمتشم ، شديد اللعنة فلا يتعفف ، حاد البادرة فلا يتلطف ؛ فهو في هجائه يذكر المورات ويعلن الخزيات بألفاظها المارية وأسبغها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها ، بله الفتاة الخفيرة . وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلطة اللسان وفجور النفس هي كل الأسباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الروع ، فان الحطية ومن سبقه على انصافهم بهذه الأوصاف لم يسفوا هذا الاسفاف ، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوى في ذلك : فالخلق العربي القوي قد همت أو امره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالمعجم ، والوازع الديني قد ضعف بثقل الأحزاب وضعف المصيبة ، والسلطان السياسي ينفض جفنيه ويضحك ملء شديه من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة . أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لاتصاره بالمال والقتال والمداية ، وربما أتى كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرهما عمر بن لجأ لجرير . وكان أحسن الهجاء هجاء الفرزدق في جرير ، فهو يرى قومه بضمة النسب ، وضعف الحيلة ، واتخاذ الفم ، ورعى الابل ، وإتيان الأثن ، ويفتن في هذه المعاني افتنانا عجيبا : يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى ، ولا يتخرج أحيانا من افتعال الحوادث المضحكة لإممانا في السخر من المهجو والنيل منه

وهذا غاية ما وصل إليه المهاجرون وأهل التنادر في عصور

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي القمي صدر حديثاً

بينهما معاهدة أخرى في سنة ١٨٩٩ على أثر حادثة قشودة المشهورة وفيها تنازلت فرنسا عن دعاويها في أعالي النيل ؛ وأخيراً عقد « الاتفاق الودي » بين الدولتين في سنة ١٩٠٤ ، وفيه تمهدت فرنسا بأن تطلق يد انكلترا في مصر وألتناوى سياستها فيها ؛ وتمهدت انكلترا من جانبها أن تطلق يد فرنسا في مراكش وألتناوى سياستها فيها

وأثارت بين ألمانيا وفرنسا من أجل مراكش خصومة مضطربة كادت أن تنفجر غير مرة ؛ وكانت فرنسا تحرص على أن تضم مراكش إلى امبراطوريتها الافريقية ، وتحرص ألمانيا من جانبها على أن تضع في سبيل فرنسا كل عقبة ممكنة ؛ وفي سنة ١٩٠٥ ، زار الامبراطور ولهم الثاني ثغر طنجة وألقى خطاباً رناناً حمل فيه على السياسة الفرنسية ؛ واضطرت فرنسا أن تقبل بحث المسألة المراكشية في مؤتمر دولي ؛ وعقد المؤتمر في الجزيرة (باسبانيا) سنة ١٩٠٦ من الدول الكبرى ؛ وأصدر قراراً باعلان استقلال السلطان ، ووجوب المحافظة على وحدة الأراضي المراكشية ، مع الاعتراف بحق اسبانيا وفرنسا ومصالحهما الخاصة في هذه المنطقة . ولم تضم ألمانيا شيئاً . وفي سنة ١٩١١ جردت فرنسا حملة على فاس ، وانتهزت ألمانيا هذه الفرصة فأرسلت سفينة حربية إلى أغادير ، ووقعت بين الدولتين مشادة حادة كادت تنتهي باضطرام الحرب بينهما ؛ ولكن الخلاف انتهى بمقد معاهدة اعترفت فيها ألمانيا بحق فرنسا في مراكش مقابل مزايا استعمارية كبيرة في افريقية الوسطى . وعلى أثر ذلك انتهزت فرنسا الفرصة وعملت على ارغام مراكش على قبول حمايتها بمعاهدة عقدت مع السلطان في سنة ١٩١٢

أما إيطاليا ، وهي رابسة الدول الاستعمارية الكبرى التي اشتركت في اقتسام افريقية ، فكان نصيبها طرابلس في الشمال ، وارترية وشرقاً من بلاد الصومال في الشرق . وسنمعرض في فصل قادم إلى تفصيل هذه الغزوات الاستعمارية ، وسنمعرض بوجه أخص إلى موقف الجبهة من هذه الحركة الأوربية الاستعمارية الشاملة وكيف نجت من عواقبها ، واستطاعت أن تحتفظ باستقلالها إلى يومنا

(. . .)

تبحث بقية